الامبراطور البيزنطى رومانوس الرابع ديوجينس

(١٠٦٨ — ١٠٧١ م)

فى ضوء حولية ميخائيل بسلوس

دكتور محمود سعيد عمران
كلية الآداب ـ جامعة الاسكندرية

موضوع هذا البحث هو الامبراطور رومانوس الرابع ديوجينس Romanus IV Diogenes (١٠٦٨ — ١٠٧١ م) فى ضوء حولية ميخائيل بسلوس Michael Psellus . والبحث فى هذا الموضوع له أهداف متعددة، منها التعمق فى مصدر من مصادر الدولة البيزنطية أثناء حكم الامبراطور رومانوس ، خاصة أن ميخائيل بسلوس (١٠١٨ — ١٠٧٨ م) كان معاصراً وشاهد عيان، كما أنه شغل عدة مناصب عليا أهلته للتعرف على الأحداث عن قرب . ومنها أيضاً دراسة عصر رومانوس داخلياً وخارجياً ، فمن الناحية الداخلية كان هناك الصراع على العرش بين العسكريين والمدنيين فى وقت كانت تمر فيه الامبراطورية بفترة من الضعف ، وما ترتب على ذلك من نتائج . ومن الناحية الخارجية كان لصراع الداخلى أثره فى زيادة أطماع الدول المحيطة بالامبراطورية خاصة فى الشرق والغرب . ففى الشرق نجد الاتراك السلاجقة وتقدمهم فى شرق آسيا الصغرى وحملات رومانوس المتكررة لوقف غاراتهم وتقدمهم . وفى الغرب نجد النورمان فى صقلية وجنوب ايطاليا وأطماعهم فى الممتلكات البيزنطية، ومن أهداف هذا البحث أيضاً تقديم دراسة باللغة العربية فى مجال الدراسات البيزنطية فى وقت ندرت فيه تلك الدراسات فى عالمنا العربى .

وخطة الباحث فى هذه الدراسة تنحصر فى تعريب ما سجله بسلوس فى حوليته المنشورة باللغة الانجليزية (١) ، ثم التعليق على المادة التاريخية فى الحواشى عندما يجب التعليق عليها حتى تصبح المادة التاريخية مفهومة للقارىء. وفى نهاية البحث يقدم الباحث خاتمة يذكر فيها أهم الأحداث التى وقعت فى عصر رومانوس ولم يسجلها بسلوس فى حوليته . ولما كان التعليق فى سطر أو أكثر على ما قدمه بسلوس من مادة تاريخية غير كاف فى بعض النقاط ، فقد أفرد الباحث ثلاثة ملاحق فى نهاية البحث ، إما لتحقيق جانب من جوانب المادة التاريخية ، أو لايضاح حادثة لم يوفها بسلوس حقها من الكتابة أو اللاتين معاً . ولما كان حكم الامبراطورة يودكيا Eudocia كوصية على ولديها القاصرين ميخائيل وقسطنطين Constantine (١٠٦٧م) مقدمة لحكم رومانوس الرابع ، فقد وجد الباحث أن يبدأ مع حكم يودكيا حتى يتضح الموقف بجلاء .

والله ولى التوفيق ،،

اسكندرية فى يوليو ١٩٨٠ محمود سعيد عمران

Psellus, Michael, Chronographia, tr. Sewter, London, 1953.

وهى النسخة التى رجع اليها الباحث . وهناك طبعة أخرى باللغة الفرنسية نشرت فى جزئين فى باريس ١٩٢٦ .

يودكيا ١٠٦٧ م ، رومانوس الرابع ١٠٦٨ – ١٠٧١ م

يودكيا تصبح حاكمة على الامبراطورية مع ولديها ميخائيل وقسطنطين

١ – عندما خلفت الامبراطورة يودكيا زوجها (١) بعد وفاته حسب رغبته ، فانها لم تقم بتسليم الحكم إلى آخرين (٢) . لقد نأت بنفسها عن قضاء معظم حياتها عاطلة فى القصر بينما يقوم رجال الدولة بتسيير دفة الحكم . كما كان سلوكها فى البداية يتسم بالتواضع ولم تسرف فى استخدام المواكب الامبراطورية أو فى زيها . لقد تحملت المسئولية بكل وعى ، وشاركت فى كل اجراءات الحكم بصورة عملية كلما أمكنها ذلك ، فكانت تختار رجال الحكم ، وتنظر فى الشئون العامة والايرادات والضرائب ، وانسمت عباراتها بنبرات القوة التى يجدها المرء فى أى إمبراطور . ولم يكن هذا يدعو للدهشة لأنها فى الحقيقة كانت أمرأة ذات كفاءة عالية . وقد شاركها فى الحكم ولداها (٣) وكل منهما يعرف قدر نفسه وقد سيطر عليها الخوف والاجلال لأمها .

٢ – وليس من المستغرب أن يحترمها ابنها قسطنطين ، وهو لا يزال طفلا غير قادر على فهم شئون الدولة ، ولا يستطيع ميخائيل بسلوس أن يثنى عليه لتواضعه الطبيعى . أما الابن الثانى ميخائيل فكان له وضع آخر ، فقد

---

(١) هو قسطنطين الثامن دوكاس ١٠٥٩ – ١٠٦٧م .

(٢) ينطبق ذلك على المرحلة اللاحقة لوفاة زوجها فقط فى عام ١٠٦٧م أما بعد زواجها من رومانوس الرابع فقد أصبح الأخير امبراطوراً ويبده كل السلطات .

(٣) هما ميخائيل و قسطنطين أنظر الموضوع رقم (٢) .

تجاوز مرحلة الصبا وأصبح قادراً على فهم شؤونه (١) ، وأثبتت المواقف التى شاهدها ميخائيل بسلوس نضوج عقله بدرجة واضحة . ومن الصعب أن نقارن بين دوافع الفتى الطبيعية والطريقة التى سلم بها مقاليد الحكم لأمه ، ويرى بسلوس عدم الثناء على الفتى فى هذا الصدد .

ويقول بسلوس انه كثيراً ما شاهد الفتى ميخائيل فى مناسبات عديدة وهو صامت فى حضرة أمه كما لو كان عاجزاً عن الكلام ، رغم أنه كان بوسعه الحديث . وكان الفتى يملك القدرة على القيام بأى عمل يطلب منه ، الا أنه لم يسهم فى الأمور التى تتعلق بشئون الامبراطورية .

٣ — وليس من الصواب القول بأن يودكيا أم ميخائيل كانت تحتقره وتزدريه فى بداية حكمها . والحق أنها كانت تقوم بتدريبه بنفسها ليصبح امبراطور المستقبل . كما سمحت له فيما بعد بتعيين رجال الدولة وشجعته على أن يعمل قاضياً . وكثيراً ما كانت تعبر عن حبها له وتغمره بقبلاتها . وأحياناً كانت تثنى عليه وتعبر عن فخرها بعلمه . وكانت يودكيا تهتم بملك ابنها ميخائيل وتعده لمختلف الواجبات التى يتعين أن ينهض بها الامبراطور . وكثيراً ما كانت يودكيا تعهد بابنها ميخائيل إلى بسلوس وتطلب منه أن يعلمه أصول وظيفته وأن يسدى النصح اليه . واعتاد ميخائيل أن يجلس على العرش الامبراطورى إلى جانب شقيقه قسطنطين ، لأن ميخائيل كان كريم الطباع بالفطرة ، ولم يعتزم أن يحتفظ لنفسه بالسلطة كاملة . والحقيقة انه كان يسمح لشقيقه أن يشاركه فى واجباته كإمبراطور . وهكذا سارت الامور فى تلك الأوقات ، وكان عليها أن تبقى حتى النهاية دون تغير

---

(١) انجبت يودكيا من زوجها قسطنطين العاشر ثلاث أولاد هم ميخائيل المعروف بالسابع ١٠٧١ — ١٠٧٨م ، واندرونيقوس وقسطنطين وثلاث بنات هن أنا وثيودورا وزوى .
أنظر C.M.H.VI, p, 393 . وقد توفى أندرونيقوس أثناء حكم أبيه .
راجع Psellus, op. cit., p. 260.
وكان ميخائيل فى الرابعة عشر من عمره عند وفاة والده عام ١٠٦٧م أنظر مايل ص ٢٠

ما لم يتدخل القدر القاسى بضرباته . (١)

٤ — فى هذه المرحلة من الحولية بود بسلوس أن يروى شيئاً عن الامبراطورة يودكيا . يقول بسلوس : حتى هذه المرحلة لا أعرف أمرأة أخرى تضاهيها فى الحكمة أو عاشت مثل حياتها . ولا يمضى بسلوس إلى أبعد من ذلك ولكنه يذكر أنها لم تصبح أقل حكمة بعد هذه المرحلة وإنما صارت أقل اهتماماً . لقد أخذت افكارها تتغير بتقدمها فى العمل . ويدافع بسلوس نيابة عنها ويذكر لو كان هناك بعض التغير فى تصرفاتها فانها لم تعد عبداً للذات ولم تستسلم للانفعالات الماجنة . والواقع أنها كانت قلقة على ولديها ميخائيل وقسطنطين . وكانت تخشى أن يحرما من التاج إذا لم يقم شخص بحمايتهما وارشادهما . ولم تكن الحياة فى القصر تروق للامبراطورة يودكيا . وتبرهن الحادثة التالية على ذلك . لقد كان بسلوس أخاً روحياً لوالد يودكيا ، (٢) وكانت تكن له احتراماً فائقاً وتنظر اليه كشىء مقدس. لقد حدث أن كان بسلوس معها ذات مرة فى احدى الكنائس المقدسة ، وشاهد عمق ايمانها بالله ، ومدى إخلاصها للسيد المسيح ، فتأثر ودعا لها من كل قلبه أن تتمتع بالسلطة مدى حياتها . ولكن يودكيا استدارت وعنفته على ذلك وقالت «ان هذا الدعاء لعنة ، انى لا أتمنى أن يكتب لى أن أتمتع بالسلطة طويلا ، وان أموت امبراطورة . » ولقد ملأت هذه الكلمات قلب بسلوس بالخوف والرهبة واعتبرها أسمى من أن تكون بشراً .

---

(١) يقصد المؤرخ بهذه العبارة زواج يودكيا من رومانوس ديوجينس وسيطرته على العرش ، وسيطرة الحزب العسكرى على الحكم . أنظر .

Vasiliev, A., History of Byzantine Empire, Madison, 1928, I, p. 427.

(٢) والد يودكيا هو قسطنطين دالاسينوس Dalassenus وقد أشار اليه بسلوس فى حديثه عن قسطنطين العاشر وذكر أن دالاسينوس كانت له شهرته فى المجال الشاق . أنظر

Psellus, op. cit., p. 255

٥ — على أية حال فالانسان كائن غير ثابت وغير مستقر خصوصاً عندما تقدم له الظروف الخارجية سبباً للتغيير . لقد كانت هذه الامبراطورة أمرأة ذات خلق رفيع وروح نبيلة ، ولكن قوة مستشاريها الحكماء اهتزت من قوة الاحداث التي اندفعت واصطدمت بها ، واغريت بأن تتزوج للمرة الثانية (١) . وكان هناك بعض الناس يعرفون ما يجرى ولكنهم قالوا أن للقدر يداً فى الأمر ، كما أن يودكيا لم تنوه بنواياها إلى بسلوس ، ولاشك أنها فعلت ذلك بدافع الخجل . لقد أرادت أن تتحاشى ذكر اسم الزوج المنتظر وأن تضع فى الوقت نفسه حداً للشائعات التى راجت حول شخصيته . ومن ناحية أخرى أرادت يودكيا أن تعرف بسلوس مخططها . وعلى ذلك زار أحد مستشارى الامبراطورة الأشرار بسلوس وأوعز اليه أن يتحدث مع الامبراطورة صراحة فى موضوع الزواج ويقترح عليها أن تضع على العرش أحد النبلاء . وكانت اجابة بسلوس موجزة ، فقد قال انه لن يقدم مثل هذه النصيحة ولن يحاول اقناعها بالحجة ولن يلجأ إلى أى وسيلة حتى

---

(١) يود المؤرخ أن يوضح لنا فى هذا الموضع أن يودكيا تزوجت من رومانوس رغما عنها وأن الظروف التى أحاطت بها كانت أقوى منها . وهناك رواية أخرى حول زواج يودكيا توضح لنا أنها كانت مهتمة بصفة خاصة بموقف البطريق البيزنطى يوحنا اكسيفيليلينوس John Xiphilinus (١٠٦٣ — ١٠٧٥ م) الذى كان مصراً على أن تظل يودكيا دون زواج وفاء للقسم الذى اقسمته لزوجها الراحل . ولكى تحصل على موافقة البطريق وتتزوج من رومانوس تآمرت مع أحد خصيان القصر الذى اقترح على البطريق زواج أخيه بارداس Bardas من الامبراطورة . وقد عرض البطريق على مجلس الشيوخ فكرة زواج أخيه دون الحاح ، ولما كان بارداس غير ملائم لهذا المركز فقد وافق المجلس فى النهاية على زواجها من رومانوس . أنظر

Finlay, History of Greece, Oxford 1877, III, pp. 24-5.

ويميل الباحث إلى الأخذ بأن يودكيا كانت راغبة فى الزواج من رومانوس ولم تجبر على ذلك ويؤيد ذلك أقوال يودكيا التى أوردها بسلوس . أنظر مايلى ص ٧ .

ذا سنحت له الفرصة . (١)

٦ — وحوالى ذلك الوقت انتشرت شائعات وصلت إلى مسامع البلاط ، لقد اختارت يودكيا امبراطور المستقبل . وطبقاً للترتيبات التى أعدوها كان هذا هو اليوم المحدد لوصول الامبراطور المنتظر إلى المدينة ، وفى الصباح التالى تقام مراسم التتويج . وفى أمسية اليوم نفسه استدعت يودكيا بسلوس ، وعندما أصبحا بمفردهما تحدثت يودكيا إلى بسلوس وقد امتلأت عيناها بالدموع وقالت ، يجب أن تدرك مدى ضياع هيبة الامبراطورية ، والحاجة إلى الأموال بسبب الحروب التى تنشب باستمرار ، وتحالف البرابرة الذين ينهبون الشرق كله (٢) ، كيف يتسنى للامبراطورية أن تنجو من الكارثة ؟ وليس لدى معرفة بالأحداث التى جرت ، وان الامبراطور المرشح يقف على أبواب القصر . وقد أجاب بسلوس بأن المسألة ليست من السهولة بحيث يبت فيها على الفور ، وأضاف أن هذا الموضوع يتطلب التفكير الجدى ، وعلى حد قول المثل المعروف ، من الأفضل أن نقترح اليوم وأن نستمع غداً ، ولكن يودكيا واصلت حديثها ضاحكة وقالت ، لا فائدة فى التفكير الآن ، لقد بت فى الأمر من قبل وتم اتخاذ القرار . لقد طلب إلى رومانوس بن ديوجينس أن يحكم كإمبراطور ، وفضلته على الآخرين (٣)

---

(١) كان بسلوس يشغل منصب رئيس الوزراء ويمثل الاستقراطية المدنية كما كان رومانوس يمثل الاستقراطية العسكرية ولذلك كان بسلوس يصل بكل جهده حتى لا يصل رومانوس إلى السلطة لأن ذلك يعنى ضياع نفوذ بسلوس وحزبه .

(٢) المقصود بالبرابرة فى هذا الموضع الأتراك السلاجقة الذين سيطروا على الخلافة العباسية وبدأوا يتقدمون فى آسيا الصغرى واستولوا على مدينة آنى Ani عام ١٠٦٥م وخربوا قيصرية فى عام ١٠٦٧م م أنظر :

Ostrogorsky, History of Byzantine State, Oxford, 1956, p. 303.

(٣) توضح هذه العبارة أن يودكيا كانت راغبة فى الزواج من رومانوس ولم تجبر على قبوله ، وهذا يخالف الحالة التى سجلها المؤرخ من قبل . أنظر ماسبق ص ٦ .

٧ – لقد أصابت هذه الكلمات بسلوس بالرعب على الفور ، ولم يستطع أن يتصور ما سيحدث له (١) . فقال : حسنا ، سوف أدلى برأى فى هذا الموضوع غداً ؟ فأجابت يودكيا ، ليس غدا بل الآن وعليك أن تؤيدنى وتعضدنى . فأمسك بسلوس بزمام المبادرة وطرح سؤالا واحدا ، وقال ليودكيا : هل يعرف ولدك الامبراطور الذى يفترض أنه سوف يحكم الامبراطورية ذات يوم بمفردة بما حدث . فأجابت يودكيا : انه يعرف طرفاً من الموضوع وليس لديه كل التفاصيل بعد . وأضافت : على أية حال فانى مسرورة لذكرك ولدى ، ولنذهب اليه ونشرح له كيف تسير الأمور ، انه ينام فى أحد الأجنحة الامبراطورية .

٨ – ذهب بسلوس ويودكيا إلى الفتى ، ولم يكن بسلوس يعرف مدى شعورها ، ولكنه كان ثائراً للغاية ، ولذلك سرت فى جسده رعشة مفاجئة بدأت من قمة رأسه حتى أخمص قدميه . وجلست يودكيا على سرير ولدها وناديته : يا إمبراطورى ويا ولدى المفضل ، انهض واستقبل زوج أمك ، ورغم أنه سيحتل مكان والدك فانه سيظل من الرعايا وليس امبراطوراً ، أنا أمك وقد ألزمته كتابة بأن يراعى هذا التعهد (٢) . ونهض الفتى من مخدعه فى الحال ونظر إلى بسلوس نظرة مريبة ولم يكن لدى الأخير أية فكرة عما يفكر فيه الفتى الذى غادر الغرفة التى كان ينام فيها مع أمه ومشى حتى قابل الامبراطور الجديد وجهاً لوجه دون أى انفعال ، فقد كان وجهه جامد التعبير تماماً ثم احتضن رومانوس وأصبح شريكاً له فى العرش وصديقاً .

---

(١) توضح هذه الجملة خوف بسلوس على مركزه إذا أصبح رومانوس إمبراطوراً ، وتسلطت الاستقراطية العسكرية على الحكم .

(٢) إذا كانت يودكيا قد حنثت بالقسم الذى أقسمته بعدم الزواج بعد زوجها تسطفين الثامن ، فكيف تضمن أن يظل رومانوس محافظاً على عهده بعد مايصبح امبراطوراً ؟ . لقد استحوذ رومانوس على السلطة وعامل يودكيا معاملة سيئة . أنظر مايلى ص ١٠ .

٩ — عندئذ حضر القيصر (١) ، ولم تظهر مهارته الدبلوماسية فى صورة أروع مما بدت عليه فى ذلك اليوم . لقد أجرى القيصر بعض الاستفسارات عن ابن أخيه الامبراطور ، ثم أضاف كلمات قليلة مثنياً على رومانوس ، وتلى ذلك تقبل التهانى من الحاشية والأسرة الامبراطورية . وكان بوسع المرء أن يسمع رومانوس وهو يغنى أنشودة الزفاف ، ويراه يشرب نخب المناسبة ، وهكذا آل حكم الامبراطورية إلى يدى الملك رومانوس (٢) .

حكم رومانوس ديوجينس

١٠ — كان الامبراطور رومانوس بن ديوجينس سليل أسرة قديمة ومعروفة ، ولكن ذلك كان من جانب واحد ، فقد كان والده مجرماً وألقى القبض عليه بتهمة التمرد خلال حكم رومانوس أرجيروس Romanus Argyrus. (٣) ، وقد انتحر ديوجينس بأن ألقى بنفسه فى جرف . ورغم هذا فقد كانت هناك مناسبات ظهر فيها بأنه مستقيم ولكنه كان مرائياً ومتبجحاً فى معظم حياته . أما رومانوس الابن فلم يخل من الخيانة فى ذلك الوقت ، وقد مرت كل الحيل والمكائد التى حاكها خلال حياته دون أن يفطن اليها أحد إلى أن أصبحت يودكيا امبراطورة . ولقد وصفت هذه السيدة فى الصفحات السابقة . ولم يفصح رومانوس عن نواياه السرية حتى

---

(١) هو جون دوكاس أخ قسطنطين العاشر . أنظر .
Ostrogorsky, op. cit., p. 304.

(٢) حكم رومانوس من ١ يناير ١٠٦٨م أنظر C.M.H. IV, p. I, p. 209
وظل حكمه حتى ١٦ أغسطس ١٠٧١م . راجع مايلى ص ١٦ .

(٣) يعرف برومانوس الثالث أرجيروس وحكم من ١٠٢٨ — ١٠٣٤م ، وقد ذكر المؤرخ أن عدة ثورات قامت ضد رومانوس أرجيروس ولكنه لم يذكر ديوجينس بالاسم . أنظر
Psellus, op. cit., p. 51.

تولت يودكيا العرش . لقد اعتقل رومانوس عندما تولت يودكيا السلطة(١)، وكانت جرأته وجسارته تعرضه للخطر لولا عطف الامبراطورة ورحمتها التي أنقذته من العقاب . وكان هذا حكماً خاطئاً من جانبها ، وكان الواجب أن تحكم عليه بالموت ، ولكنها أنقذت عنقه بدلا من ذلك (٢) . وبعد أن فعلت ذلك اعتقدت أن سيادتها ستتأكد وتتدعم إذا نصبته امبراطوراً . وكان يجب أن يكون عند حسن ظنها ولا يعارض رغباتها ، وكان هذا هو التوقع المعقول ، ولكن خططها باءت بالفشل . فبعد أن تظاهر لبضعة أيام بأنه من رعاياها المخلصين ، عاد إلى سيرته الأولى . وكلما حاولت السيطرة عليه وعاملته كأنه سيدها — مثل الليث فى القفص — ثار على نفوذها الذى يقيده وعض اليد التي تمنحه . وفى بداية الأمر كان يثور داخلياً ويمرر الوقت أصبح احتقاره للامبراطورة واضحاً للجميع .

١١ — يقول بسلوس : يجب على أن أعترف أن موقف رومانوس منه شخصياً كان يتسم بالتوقير والاحترام . والحقيقة أن رومانوس عندما كان مواطناً عادياً كان يلتمس رضا بسلوس بكل خضوع ومذلة ، وقد ساعده الأخير فى حياته . وعندما اعتلى رومانوس العرش لم ينس خدمات بسلوس وفضله ، وأظهر له الحب والاحترام حتى انه كان ينهض عندما يمثل بسلوس أمامه ويعامله كأعظم صديق له . ويضيف بسلوس قائلا : على أية حال ان ما ذكرته كان استطراداً وخارج عن المحور العام للموضوع (٣) . ولكن المهم أن رومانوس كان يرغب فى الانفراد بالحكم ولا يشاركه فى العرش أحد . ولسوء الحظ أن رومانوس لم يسهم اسهاماً كبيراً فى الشئون العامة

---

(١) تولت العرش فى ٢١ مايو ١٠٦٧م وهو تاريخ وفاة زوجها . أنظر : Ostrogorsky, op. cit., p. 304. وظلت حتى ٣١ ديسمبر من العام نفسه وتزوجت فى أول يناير ١٠٦٨ من رومانوس ديوجينس .

(٢) اتهم رومانوس بالتآمر على عرش الامبراطور القاصر ميخائيل بن يودكيا . أنظر : Finlay, op. cit., III, p. 24.

(٣) تفيد هذه العبارة أن المؤرخ يعى ما يكتب وأنه خرج عن محور موضوعه .

للامبراطورية أثناء الفترة التي سبقت توليه العرش (١) ، وعلى الرغم من ذلك فقد انتظر الفرصة بفارغ الصبر . هذا ، ويرجع اعلانه الحرب ضد الفرس (٢) إلى طموحه الشخصي أكثر من رغبته في تأمين أقاليم الامبراطورية .

١٢ — كان من عادة بسلوس أن يسدي النصائح المفيدة إلى الاباطرة ولهذا حاول كبح جماح رومانوس وأشار إلى ضرورة مناقشة مسألة القوات العسكرية واعداد قوائم بالجند ، والتحالف مع قوى خارجية ، وبعد اكتمال كل الاستعدادات يعلن الامبراطور الحرب . ولكن الثرثارين الذين اعتادوا معارضة بسلوس — مع استثناء بعضهم — جلبوا الخراب على الامبراطورية . لقد عارضوا رأي بسلوس واستمروا في المعارضة (٣) . ولهذا سادت أسوأ الآراء . لقد استعد الامبراطور للحرب في القصر وأمسك بدرع في يده اليسرى ويرمح في اليمنى ، مقوى بحلقات ، ويبلغ طوله اثنين وعشرين ذراعاً (٤) . واعتقد رومانوس أنه يستطيع بدرعه أن يمنع غارات العدو ، وبرمحه اصابة جناح جيش العدو . وأطلقت حاشية الامبراطور صرخات الحرب وصفقوا وهللوا لذلك . وبدا على وجه بسلوس ء مات القلق لأنه أحس بالعواقب المحتملة .

---

(١) واقع الامر غير ذلك ، فالمعروف أن رومانوس كان رجلا له شهرته العسكرية وأنه تمكن من صد حملة البجانكية ضد الامبراطورية وبعدها أصبح له مكانته العسكرية التي مكنته من الدخول في الحزب العسكري . أنظر . Ostrogorsky, op. cit., p. 304.

(٢) المقصود بالفرس الاتراك السلاجقة وقد اعتاد المؤرخ هذه التسمية أو كلمة البرابرة.

(٣) المقصود بالمعارضة الحزب العسكري الذي يساند الامبراطور رومانوس .

(٤) يشبه المؤرخ بسلوس الامبراطور رومانوس بأياس Aias بطل الآخيين في مواجهة البطل الطروادي هيكتور Hector أنظر :

Homer, Iliad, London, 1963, XV, 678.

١٣ — على أية حال ، خرج رومانوس من المدينة على رأس جيشه وتقدم نحو البرابرة (١) دون أن يدرى أين يسير أو ماذا يفعل وأخذ يتجول فى البلاد على غير هدى فهو يخطط للسير فى طريق ويسير فى طريق آخر ، فقد دخل الشام وفارس . (٢) وكل ما حققه من نجاح هو اختراقه لهذه الأراضى ووضع قواته على بعض التلال المرتفعة ثم انزال القوات مرة أخرى والمرور فى ممرات ضيقة . وقد عانى من كوارث جسيمة نتيجة تصرفه ، انه لم يأت بغنائم حرب من الميديين (٣) أو الفرس . ان شيئاً واحداً قد أقنع به الامبراطور ، ذلك أنه سار ضد أعدائه .

١٤ — وهنا يكمن أول مبرر لرومانوس للزهو والخيلاء ، فمنذ ذلك الوقت أخذ يبدى ازدراءه الكامل للامبراطورة ، ويحتقر موظفى الدولة ، ويرفض الاستماع إلى أى نصيحة . وهذا داء الأباطرة ولا دواء له . ولم يعد يعتمد على أى ناصح أو مستشار ولم يسترشد برأى أحد سوى رأيه الشخصى فى كل الظروف دون استثناء . أما بالنسبة لبسلوس فانه يقسم بالله الذى تجله الفلاسفة انه حاول رده عن مطامعه . ويضيف بسلوس أنه كان يعرف خططه المخادعة ، وكان يخاف على الامبراطورة والدولة من أن تفقد كل شىء ، فى تمرد أو اضطراب . ولقد ذكر بسلوس الامبراطور بتعهداته الموقرة ، وحاول كلما أمكن أن يخيفه باحتمال الاخفاق فى نهاية الأمر ، وأن خططه ربما تنقلب شراً وبيلا عليه . وعندما أبدت يودكيا استيائها من اهاناته — كما كان يحدث كثيراً — واشتكت إلى بسلوس ، حاول الاصلاح والتوفيق بينهما .

---

(١) المقصود بالبرابرة هنا السلجوق .

(٢) وقعت أحداث هذه الحملة فى العشرين من نوفمبر ١٠٦٨م ، وقد استولت القوات البيزنطية على مدينة منبج وهاجمت السلاجقة مدينة عمورية . أنظر الملحق رقم (١) .

(٣) يقصد المؤرخ المراد سيون فى حلب . أنظر ابن العديم . زبدة الحلب دمشق ١٩٥٤ جـ٢ ص ١٢ ومابعدها .

١٥ — وفى بداية الربيع ، أى بعد فترة ليست بطويلة (١) ، أخذ أخذ العدو يثير المتاعب وتبين أن حملة الامبراطور السابقة قد حققت نصراً أجوفاً . ولهذا تجددت الاستعدادات لخوض الحرب ، ويقول بسلوس انى سوفاً أتجاوز عن بعض الأحداث التى وقعت ، وانى شاركت بدور متواضع فى الحملة . وحقيقة الأمر أن الامبراطور أجبرنى على الانضمام للحملة وما كان لى أن أرفض (٢) . ويفضل بسلوس الا يقول شيئاً عن سبب إصرار الامبراطور على مرافقته فى الحملة لأنه يوجز معظم الأحداث والوقائع وأنه التزم بذلك فى هذا الموضوع . والمهم أنه لا يوجد من يستطيع أن يتهمه بعدم الاخلاص للامبراطور أو يلومه على فشل خطط الامبراطور .

١٦ — كان الامبراطور رومانوس يقر ويعترف أنه أقل ودون مستوى بسلوس فى كل المسائل المتعلقة بالأدب . ويقول ببسلوس : أنه يتحدث فى عن العلوم . ولكن رومانوس كان يطمح فى أن يبز ويتفوق على بسلوس. لقد كان لدى بسلوس معرفة دقيقة بعلم الخطط العسكرية فقد درس بعمق كل ما يتصل بالتشكيلات العسكرية ، واستخدم أدوات الحرب ، والسيطرة على المدن . وقد أثار كل هذا اعجاب الامبراطور كما أثار غيرته وحسده . وقد حاول رومانوس قدر أستطاعته مجادلة بسلوس وحاول التغلب عليه أثناء هذه المجادلات . ويدرك كثيرون ممن اشتركوا معنا فى هذه الحملة أن هذا الوصف ليس مبالغا فيه (٣) .

---

(١) وقعت الحملة الأولى أواخر عام ١٠٦٨م ، وأن الربيع يراد به ربيع ١٠٦٩م خاصة وأن المؤرخ ذكر أن هذه الأحداث وقعت بعد فترة ليست بطويلة وهى حملة رومانوس على مدينة خلاط . أنظر الملحق (٢) .

(٢) كان بسلوس أحد أقطاب المعارضة للامبراطور رومانوس وحزبه العسكرى ولعل إصرار رومانوس على إصطحاب بسلوس فى هذه الحملة هو خوف رومانوس من مؤامرة تدبر فى غيبته .

(٣) يرى المؤرخ بسلوس أنه أقدر من الامبراطور رومانوس فى الجوانب العسكرية من الناحية النظرية على الأقل . ويبدو فى ذلك غروراً من المؤرخ والحقيقة أن ماذكره المؤرخ فى الموضوع السادس عشر هذا يعد استطراداً فى النص ليظهر فيه قدراته الفلسفية والعسكرية .

١٧ — والحرب الثانية (١) لم تكن أكثر توفيقاً من سابقتها . ويقول بسلوس : الحقيقة أنها كانت غير حاسمة واحتفظ العدو بما تحت يديه فى كل مكان . ووقعت عشرات الألوف من رجالنا أسرى ، بينما لم نأخذ من اعدائنا إلا القليل من الاسرى . وعلى أية حال فان [البيزنطيين] لم يهزموا ونجحوا فى احداث هرج هائل بين صفوف البرابرة (٢) . ونتيجة هذا كله أصبح رومانوس أكثر غروراً وفخراً ووقاحة من ذى قبل لأنه قاد الجيش مرتين ، ولم يعد يحترم شيئاً والأسوأ من ذلك أن مستشارى السوء الذين استمع اليهم قد ضللوه تماماً .

١٨ — أما الامبراطورة يودكيا فقد عاملها رومانوس كأسيرة حرب بل انه كان سيوافق على طردها من القصر . لقد كان يشك فى القيصر (٣) ، وفى مناسبات عديدة كان يخطط لاعتقاله واعدامه ، ولكنه سرعان ما كان يغير رأيه ويتخلى عن الفكرة . وعلى أية حال فقد أرتضى رومانوس فى هذه المرحلة أن يجبر القيصر وأولاده (٤) على أن يقسموا له يمين الولاء والطاعة وعندما لم يصبح لدى رومانوس أية خطة لتنفيذها ضد القيصر شرع فى حملته الثالثة والأخيرة ضد البرابرة الذين أظهروا عداءهم الصريح. لقد كانوا يشنون غارات السلب والنهب على الأراضى الرومانية . وعندما حل الربيع (٥) اجتاحوها بأعداد غفيرة (٦) . ولهذا غادر رومانوس العاصمة مرة أخرى

---

(١) تفيد هذه الجملة أن رومانوس قام بحملة أولى وهى ما أشار اليها الباحث أنها وقعت أواخر عام ١٠٦٨م . والمقصود بالحرب الثانية هى التى وقعت فى ربيع ١٠٦٩ . أواسط عام ٤٦١ هـ .

(٢) عن تفاصيل هذه الحملة أنظر الملحق رقم (٢) .

(٣) هو يوحنا دوكاس الذى يشكل مع بسلوس زعامة حزب المعارضة ضد رومانوس
Ostrogorsky, op. cit., p. 304

(٤) هما قسطنطين وأندرونيقوس أنظر :
Brehier, L. Vie et Mort de Byzance, Paris, 1947, p. 282.

(٥) ربيع عام ١٠٧١م أواسط عام ٣٦٣ هـ . تابع مايلى من أحداث عن معركة مانزكرت .

(٦) عن تحركات اللاجئة فى هذه المرحلة أنظر الملحق رقم (٣) .

لمحاربتهم مصحوبا بجيوش حليفة ووحدات عسكرية وطنية أعظم من ذى قبل (١) .

١٩ — ولما كان رومانوس قد اعتاد عدم الاستماع للنصائح سواء فى المسائل المدنية أو العسكرية ، فقد خرج بجيشه فى الحال وأسرع إلى قيصرية (٢) ، ولما وصل إلى هذا الموقع خشى أن يتقدم بعد ذلك . وحاول أن يجد عذراً للعودة إلى بيزنطة ، لا خوفاً على نفسه فقط وانما لمصلحة الجيش أيضاً . ولما كان فى انسحابه عاراً يفوق طاقته ، فقد فكر فى الاتفاق مع العدو لوقف انتهاكاته السنوية . ولكن هذه الفكرة لم تنفذ (٣) . وربما كان فى حالة من اليأس والقنوط أو غرور الامبراطور يثقته فى نفسه ، حين اندفع بقواته مهاجماً دون أن يترك الحيطة لحماية مؤخرة جيشه . وعندما رآه العدو يتقدم قرر استدراكه وايقاعه فى الشرك بالخديعة . وتظاهر الاعداء بالتقهقر المدبر ، وبتكرار هذه العملية عدة مرات نجحوا فى عزل بعض قوادنا الذين

---

(١) كان الجيش البيزنطى يتكون فى هذه الحملة من ثلاثمائة ألف ويزيدون ما بين روس وروسى وغزى وقفجاق وكرجى وأبخازى وخزرى وفرنجى وأرمينى . أنظر الأصفهانى : تاريخ دولة آل سلجوق . القاهرة ١٩٠٠ ص ٣٧ .

واختلفت المصادر العربية حول عدد الجيش البيزنطى وأن أقل عدد هو مائة ألف أنظر ابن العبرى : تاريخ مختصر الدول — بيروت — ١٨٩٠ — ص ٣٢٣ وذكرت بعض المراجع الأجنبية المتخصصة أن الجيش البيزنطى كان حوالى ستين ألف . راجع .

Oman, C., The History of The Art of War in The Middle Ages, London, 1924, I,p. 219.

(٢) تقع قيصرية على مسافة ٦٥٠ كيلو من القسطنطينية وهى المسافة نفسها من قيصرية إلى مانزكرت تقريباً .

(٣) واقع الأمر أن السلطان السلجوق ألب أرسلان هو الذى بادر بعرض فكرة الصلح على الامبراطور رومانوس ، ولكن رومانوس رفض وقال لامدنة إلا بالرى . أى بعد دخول رومانوس مدينة الرى . أنظر . ابن الأثير : الكامل — بيروت — ١٩٧٩ — ج ١٠ ص ٦٦ .

خلوا أسرى (١) .

٢٠ — ويقول بسلوس أنه أدرك فى هذه المرحلة — ولو أن الامبراطور لم يدرك — أن السلطان نفسه، ملك الفرس والكرد(٢)، كان موجوداً شخصياً مع جيشه وأن معظم انتصارات الجيش ترجع إلى مهارته القيادية . ولقد رفض رومانوس تصديق أى شخص نادى بتأثير السلطان فى هذه الانتصارات. والحقيقة أن رومانوس لم يكن يريد السلام، فقد كان يعتقد أنه سيستولى على معسكر البرابرة دون قتال . ولسوء الحظ فقد تسبب بجهله للعلوم العسكرية فى تشتيت قواته (٣) ، فبعضها كان مركزاً حوله شخصياً والبعض الآخر أرسل للسيطرة على بعض المواقع . ومن ثم فبدلا من مواجهة اعدائه بقواته متكاملة فقد اشترك بأقل من نصفها (٤) .

٢١ — ورغم أن بسلوس لا يمكنه أن يثنى على هذا العمل ، فإنه لا يستطيع أن يوجه اللوم الامبراطور . ويقول بسلوس : والحقيقة أن

---

(١) ذكر الاصفهانى أن متملك الروم قد قدم رؤساء مقربين من الروس فى عشرين ألف فارس ، وخالطوا بلاد خلاط بالبلاء والسلب والسباء فخرج اليهم صنداق التركى وقتل منهم خلقاً كثيراً وقادهم فى القيد . وذلك يوم الثلاثاء رابع ذى القعدة عام ٤٦٣ هـ (٣ أغسطس ١٠٧١م).
أنظر : الأصفهانى : المصدر السابق ص ٣٨ .

(٢) المقصود به السلطان ألب أرسلان .

(٣) تعرف هذه المعركة باسم مانزكرت التى وقعت احداثها فى ١٧ ذى القعدة ٤٦٣ هـ ١٦ أغسطس ١٠٧١م . ومن أسباب هزيمة رومانوس أيضاً وقوع خيانة فى صفوف القوات البيزنطية . أنظر : Finlay, op. cit., III 33, Oman, op. cit., p. 219.

لمزيد من التفاصيل عن معركة مانزكرت راجع الملحق رقم (٣).

(٤) إذا كانت القوات البيزنطية قد قدرت بستين الف فعنى ذلك أن رومانوس اشترك بأقل من ثلاثين ألف مقاتل وليس هذا الرقم بضئيل إذا ماعرفنا أن الجيش السلجوقى كان حوالى خمسة عشر ألفاً حسب اتفاق معظم المصادر العربية .
أنظر : صدر الدين أبى الحسن : أخبار الدولة السلجوقية — لاهور — ١٩٣٣ ص ٤٧ ، ابن الأثير : المصدر السابق جـ ١٠ ص ٦٥ ، ابن العبرى : المصدر السابق ص ٢٦٢ .

رومانوس تحمل كل الخطر بنفسه ، ويمكن تفسير ذلك بطريقتين . وتمثل وجهة نظر بسلوس رأياً وسطاً بين الطريقتين . فاذا ما اعتبر بطلا يواجه الخطر ويحارب بكل شجاعة ، فمن المعقول أن نثنى عليه . أما إذا فكر المرء فى أن القائد هو من الزم بالقواعد العسكرية المتبعة ويجب عليه أن يظل بعيداً عن خط القتال يشرف على تحركات جيشه ويصدر الأوامر اللازمة للرجال الذين تحت قيادته ، فعندئذ يعتبر سلوك رومانوس تهورا كبيراً لأنه عرض نفسه وحياته للخطر دون أدنى تفكير فى العواقب . ويميل بسلوس كثيراً إلى الثناء عليه لما فعله أكثر من توجيه اللوم اليه . (١)

٢٢ — على أية حال لقد ارتدى رومانوس الزى العسكرى بكامله كجندى عادى وشهر سيفه على الاعداء . وطبقاً لرواية كثير من المصادر الخاصة ، فقد قتل رومانوس بالفعل عدداً كبيراً من الأعداء وأجبر عدداً آخر على الفرار . وعندما عرف مهاجموه من هو فيما بعد ، حاصروه من جميع الجوانب وقد جرح وسقط من فوق جواده . وكان طبيعياً أن يأسروا امبراطور الروم ويقتادوه إلى معسكر الأعداء فتشتت جيشه. وكان الذين هربوا جزءاً يسيراً من كل الجيش ، أما معظم الجيش فقد صار ما بين أسير وقتيل (٢) .

٢٣ — يقول بسلوس لست راغباً فى هذه المرحلة أن أكتب عن الزمن الذى قضاه الامبراطور فى الأسر أو موقف المنتصرين منه ، وسوف أترك ذلك إلى مرحلة لاحقة (٣) . والمهم أنه بعد أيام قليلة (٤) من المعركة

---

(١) ماقدمه المؤرخ فى هذا الموضوع يعتبر إنصافاً للإمبراطور رومانوس وتحليلا جيداً للأحداث .

(٢) أنظر أيضاً الملحق رقم (٣) .

(٣) تابع مايلى الموضوع رقم (٢٦) .

(٤) استبق السلطان ألب أرسلان ملك الروم فى أسرة بضعة أيام . أنظر الراوندى : راحة الصدور — القاهرة ١٩٦٠ ص ١٩٠ .

استطاع أحد الذين قدر لهم الفرار أن يصل قبل رفاقه ، وقد حمل هذه الأنباء المحزنة إلى المدينة (١) . واعقبه رسول ثان ثم آخرون . ولم تكن الصورة التى قدموها واضحة لأن كل منهم عرض الكارثة بطريقته الخاصة . فقد روى البعض أن رومانوس قد مات ، وذكر آخرون أنه وقع أسيراً ، والبعض أعلن أنهم رأوه ملقى على الأرض جريحاً ، بينما ذكر آخرون أنهم رأوه يقتاد مكبلا بالسلاسل إلى معسكر البرابرة (٢) . وعلى ضوء هذه المعلومات عقد مجلس فى العاصمة ، وأخذت الامبراطورة تفكر فى الخطوات المقبلة ، وكان القرار الجماعى الصادر عن الاجتماع هو أنه يجب ترك موضوع الامبراطور مؤقتاً سواء أكان أسيراً أم ميتاً ، ويجب على الامبراطوره يودكيا وولداها حكم الامبراطورية .

٢٤ — وفى هذا المؤتمر أبدى بعض المستشارين الرغبة فى أن يتولى ميخائيل وشقيقه الأصغر (٣) السيطرة الكاملة على ادارة الامبراطورية ، وألا تقوم أمهما بأى دور فعال أيا كان . بينما حبذ آخرون أن تستعيد يودكيا السلطة الكاملة مع استبعاد ولديها . أما بسلوس فلم يوافق على كلا الرأيين ، فالرأى عنده — وهو يتحدث بصراحة — هو أن الواجب على الجميع أن يعملوا فى تناسق ، ويجب على الابن أن يولى والدته الاحترام لأنها أمه ، ويجب أن تظل الأم كحاكمة على قدم المساواة مع ابنها . والحقيقة أن اقتراح بسلوس هذا هو الذى وافق عليه الامبراطور ميخائيل نفسه وأيده (٤) . وقد كان هناك أشخاص يتمنون أن يستأثروا بالسلطة العليا لانفسهم ، وأن يحكموا الدولة لحسابهم وهؤلاء هم الذين حرضوا يودكيا على أن تحكم

---

(١) المراد بها مدينة القسطنطينية .

(٢) توضح هذه السطور أن المؤرخ لايلتزم الاحكام جزافا بل يعرض المادة التاريخية بكل حذر .

(٣) هو قسطنطين دوكاس .

(٤) لم يستمر هذا الوضع طويلا فقد أجبرت الإمبراطورة الأم على التنازل والإنخراط فى سلك الرهبانية . أنظر مايلى الموضوع رقم (٣١)

بمفردها ، وفى الوقت نفسه كانوا يعملون على احداث الشقاق بين ميخائيل وأمه .

٢٥ — يقول بسلوس : كان من الصعب عليه فى هذه المرحلة أن يعبر كما ينبغى عن الاعجاب الذى شعر به نحو هذا الفتى ، لقد ناقش بسلوس مع ميخائيل دستورية هذا التصرف سراً ، وكان ميخائيل مستعداً — إذا شاءت أمه — أن يتنازل عن العرش . كما كان ميخائيل حريصاً على ألا يصدر منه أى تصرف يدل على عدم احترامه لوالدته ، وكان ميخائيل يرى أنه من الواجب أن تعامل أمه بالاجلال الذى يليق بها مهما كان الثمن . ولقد نجح بسلوس فى الوصول إلى تسوية بين ميخائيل وأمه يودكيا أكثر من مرة . ولكن ميخائيل كانت تسيطر عليه فكرة أنه لا ينبغى له أن يعارض والدته ، لأن مجرد لقائهما وجهاً لوجه كان يظهر الخجل والوجل فى وجه ميخائيل . لقد أصر ميخائيل على إذلال نفسه تماماً ، وظل هذا الوضع حتى وصل القيصر (١) إلى المدينة بناء على طلب يودكيا وقد أيد القيصر وجهه نظر بسلوس التى ترمى إلى قيام حكم جماعى للأسرة . (٢)

٢٦ — لم تكد مشكلة الحكم تجد حلا لها حتى هوت على رؤوسنا [البيزنطيين] محنة أخرى فى اليوم نفسه (٣) ، فعندما وقع الامبراطور الرومانى أسيراً فى أيدى القائد العام لقوات العدو ، فانه لم يبتهج بالنصر الذى حصل بنجاحه الخارق ، لقد احتفل بانتصاره فى تواضع غير متوقع ، فقدم مواساته لأسيره وسمح له أن يشاركه مائدته وعامله كضيف كريم ، وعين له حرساً خاصاً ، وحرر الأسرى الذين حرص الامبراطور على اطلاق

---

(١) يوحنا دوكاس .

(٢) توحى هذه السطور بأن يودكيا كانت تريد الانفراد بالحكم وأن بسلوس والقيصر يوحنا عارضا هذه الفكرة .

(٣) المقصود بذلك خبر اطلاق سراح رومانوس من الأسر .

سراحهم ، وأخيراً أطلق سراح رومانوس نفسه أيضاً ، بعد أن عقد معه معاهدة صداقة وتلقى منه ضمانات أقسم عليها الامبراطور بأن يلتزم بكل بكل الخلاص بالتعهدات التي قطعها على نفسه ، وإعادته إلى اراضي الرومانية مصحوباً بعدد كبير من الحرس كما يتمنى أي شخص (١) . والواقع أنه كان في اطلاق سراح الامبراطور بداية المتاعب ، فقد كان ذلك سبباً رئيسياً لكوارث عديدة . وبعد أن حصل الامبراطور على تساهل [من عدوه] يفوق تصوره ، أصبح يعتقد أن في امكانه أن يسترد عرشه بدون أية صعوبة(٢) ، ولكي يبرهن رومانوس على حسن الحظ الذي واتاه بعد هزيمته ، كتب رسالة بنفسه إلى الامبراطوره يخبرها فيه بكل مغامراته .

٢٧ — وعلى أثر هذه الأخبار ساد الاضطراب الشديد داخل القصر وكان الجميع يغدون ويروحون في كل مكان ، فقد اندهش بعضهم عند سماع هذه الأنباء ولم يصدقها البعض الآخر . ووجدت يودكيا نفسها في موقف عصيب وعجزت عن اتخاذ أي قرار . وعندما وصل بسلوس وجد نفسه في صلب المشكلة ، فقد ألح الجميع عليه لتقديم المشورة واسداء النصح بأفضل تصرف يمكن عمله . ويقول بسلوس لقد كان امبراطوري المحبوب ميخائيل قد انضم إلى البعض وأصر على سماع رأي . ولهذا أعلن بسلوس أنه لم يعد من الضروري استقبال رومانوس داخل الامبراطورية ويجب اعتباره خارجاً على القانون ، ويجب أيضاً اصدار الأوامر في جميع أنحاء الامبراطورية بان حكمه قد انتهى . وقد اقتنع المعتدلون بأن هذه الطريقة

---

(١) بعد اطلاق سراح رومانوس جهزه السلطان ألب أرسلان بعشرة آلاف دينار وأطلق جماعة من البطارقة وخلع عليه وسير معه عسكراً يوصلوه إلى مأمنه وشيعة فرسخاً . ابن الأثير : المصدر السابق ج ١٠ ص ٦٧ ، ابن العبري : المصدر السابق ص ٢٢٣ .

(٢) توضح هذه العبارة أن حكم رومانوس انتهى بوقوعه أسيراً في يدالسلاجقة وهو تاريخ معركة مانزكرت .

تحقق المصالح العامة للامبراطورية ، ولكن المعارضون كان لهم رأى آخر (١)

٢٨ — هكذا كانت الأمور تمضى عندما قرر ميخائيل ، نتيجة خوفه على حياته الخاصة ، وعدم ثقته فى [رومانوس] ديوجينس القاسى الطبع أن يمضى فى طريق خاص . ولا شك أن الخطة التى وضعها قد أنقذت حياته ، وكان تصرفاً حكيماً حقاً . لقد خرج من تحت سيطرة والدته وأصبح سيد نفسه منذ ذاك الوقت . (٢) وبناء على نصيحة أبناء عمه (٣) القيصر يوحنا دوكاس ، ضمن ولاء حرس القصر المسلحين جميعاً بالدروع والسيوف الحديدية الثقيلة ذات الحد الواحد التى تعلق على الاكتاف اليمنى Rhomphaia(٤)، على أية حال ، فقد أخذ الحراس يدقون بعنف على دروعهم فى آن واحد ويصيحون صيحات الحرب ، ولوحوا بسيوفهم فى صياح ، واتجهوا متماسكين إلى الامبراطور اعتقاداً منهم أنه فى خطر . وأحاطوا به من جميع النواحى ، ومنعوا أى فرد أن يقترب منه ، وحملوه إلى الأدوار العليا بالقصر

٢٩ — كان ما حدث كافياً بالنسبة للمعارضين . وخلال هذا انتاب الرعب من ساندوا الامبراطورة ، وكان بسلوس أحدهم ولم يدركوا ما حدث . وقد اعتقد بسلوس ومن معه أن أحداثاً رهيبة سوف تحدث لهم ، كما فقدت الامبراطورة يودكيا أعصابها فعلا ، وهربت بعد أن وضعت نقاباً على وجهها ، إلى مأوى سرى تحت الأرض . وبينما كانت تختفى فى أعماق هذا السرداب كان بسلوس يقبع فى الفتحة التى تؤدى اليه، ولم يكن

---

(١) المعارضون هم الحزب العسكرى الذى يساند الامبراطور رومانوس .

(٢) كان ميخائيل فى الرابعة عشر من عمره عند وفاة والده قسطنطين العاشر عام ١٠٦٧م أنظر : Oman, C., The Byzantine Empire, London, 1922, p. 251. وعلى ذلك يكون ميخائيل قد بلغ الثامنة عشر فى عام ١٠٧١م .

(٣) قسطنطين وأندرونيقوس .

(٤) هو الحرس الفارنجيانى الذى كان مخصصاً لحماية الإمبراطور شخصياً . راجع Ostrogorsky, op. cit., p. 393.

لديه أية فكرة عما يجب أن يفعله ، وإلى أين يمضي طلباً للامان . على أية حال فبعد أن ضمن ميخائيل سلامته الخاصة ، تذكر بسلوس ، وكان أول من خطر على بال ميخائيل . وقد أرسل الرسل للبحث عن مكان بسلوس داخل أرجاء القصر . وعندما تعرفوا على مكان بسلوس رفعوه على أذرعهم وحملوه إلى الملك في موكب بهيج ، كما لو كان كشفاً عظيماً أو هدية ثمينة . وعندما شاهد الامبراطور بسلوس تنفس الصعداء كان بعد مرور هذه العاصفة ، وعلى الفور عهد ميخائيل إلى بسلوس بمسئولية اتخاذ القرارات الضرورية (١) .

٣٠ ـ وانشغل بسلوس بأمور الدولة ، وكان لابد من وضع بعض الخطط واتخاذ بعض التدابير إذا أريد لادارة العاصمة أن تجتاز هذا الاعصار ، وحوالى ذلك الوقت كان الآخرون يناقشون وضع الامبراطورة الذبلة العجوز . وبالاختصار فقد صدر مرسوم بأن تغادر يودكيا القسطنطينية وتعيش في دير للراهبات كانت قد اقامته وشيدته بنفسها بالقرب من البحر تكريماً للسيدة مريم العذراء (٢) . وقد نفذ هذا المرسوم على الفور رغم أن ابنها ميخائيل رفض التصديق على هذا القرار ولم يرض عن نفي أمه . ويؤكد بسلوس هذه الحقيقة ويقول : أنه مستعد أن يؤكده أمام العالم كله ويشهد الله على ما يقوله . والحقيقة أن الظروف كانت أقوى من ميخائيل

---

(١) كانت مقاليد الحكم الفعلية في يد القيصر يوحنا وميخائيل بسلوس أثناء حكم يودكيا وصية على ولديها . وبعد انتهاء حكم رومانوس أصبح الحكم في يد القيصر يوحنا أنظر :

Brehier, L., op. cit., p. 282

وظل بسلوس داخل القصر . ولكن هذا الوضع لم يستمر طويلا فقد تمكن نقفوريتس دوقا أنطاكية من الوصول إلى القصر والسيطرة على الإمبراطور ميخائيل ، وأبعد بسلوس عن القصر وأزال الحظوة عن القيصر يوحنا . راجع أسد رستم : الروم ، دار المكشوف بيروت ١٩٥٦ ج ٢ ص ١١٢ .

(٢) وقعت هذه الأحداث في ٢٤ أكتوبر ١٠٧١ م .

Ostrogorsky, op. cit., p. 304.

وتغلبت على رغباته . (١)

٣١ – فى مثل هذه الموضوعات يكرر التاريخ نفسه ، فقد تجد الأشياء نفسها تحدث والأحاديث نفسها تقال . وقد اختلف آراء الناس اختلافاً كبيراً حول مصير الامبراطورة ووجهوا ضدها الاقاويل . وترتب على ذلك صدور قرار ثان يقضى بأن ترتدى زى الراهبات ، وقد نفذ هذا الأمر وانتهت فجأة حياة الامبراطورة كحاكمة (٢) .

٣٢ – وبدلا من أن يبتهج رومانوس ديوجينس لاطلاق سراحه ، امتلأ بالحزن لاحتمال فقده لعرشه . وقد انضم اليه عدد كبير من الجنود . وعندما كان يتحرك من مكان إلى آخر ، كان يستخدم الأموال العامة فى شئونه الخاصة ممنيا نفسه بألا يجد معارضة من أحد . وأخيراً وصل إلى مدينة آماسيه Amasea (٣) الشهيرة ، وهى المدينه التى تحدث عنها الجميع .

٣٣ – كان رد ميخائيل على هذا هو أن عين ابن القيصر الشاب (٤) قائداً عاماً لجيش الرومان . وكان القائد الجديد رجلا يتسم بحيوية كبيرة ، وحضور البديهة وسرعة الخاطر ، والقدرة المتميزة على اختيار الطريق وقدرته على الحديث بأسلوب يفهمه الجميع . وعندما اقترب [رومانوس] ديوجينس من المدينة – بعد ما وطد مركزه فى آسيا – أخذ يجمع جيشه

---

(١) تشير هذه العبارة إلى أن الامبراطور ميخائيل كان العوبة فى يد عمه القيصر يوحنا دوكاس .

(٢) أصبح ميخائيل السابع حاكماً منفردا فى ٢٤ أكتوبر ١٠٧١ م أنظر
C.M.H. IV, p. I, p. 210.
وهو التاريخ نفسه الذى دخلت فيه والدته الدير . راجع ص ٢٢ حاشيته (٢) .

(٣) تقع مدينة آماسية فى الشمال الشرقى لآسيا الصغرى ومن أهم مدن تيم أرمينياكوى واتجاه رومانوس إلى إماسية يوحى بانه كان على علم بأنه أصبح غير مرغوب فيه ، لأن المفروض أن يتجه إلى الغرب فى طريقه إلى القسطنطينية .

(٤) هو قسطنطين بن يوحنا دوكاس عم الامبراطور ميخائيل .

ويكتفه . . ثم التجأ رومانوس إلى كل ألوان الحيل لكي يأسر خصمه أو يدفعه للخروج من المدينة . وبعد ما ساء مركز رومانوس وتدهور وضعه ، جمع كل قواته وصفها للقتال ضد مهاجميه وقام بهجوم جرئ . وفى المعركة تكبد كلا الجانبين خسائر كبيرة (١) . ويقول بسلوس : لقد قام قائدنا (٢) بالهجوم على العدو كفارس مجنح وانقض على صفوف الأعداء وكانت قوية كالحصن الحقيقى ، وردها وحطم صفوفها فى أماكن عديدة . ولقد لقى مصرعهم من صمدوا فى ميدان القتال بينما أخذ البعض أسرى ، وتمكن عدد ضئيل منهم من الفرار . وكان من بين الفارين [رومانوس] ديوجينس ، وقد هرب على جواده بأسرع ما يمكن (٣) . ويضيف بسلوس : ولأول مرة أصبح لدينا مبرراً للشعور بالثقة فى المستقبل .

٣٤ — وحقيقة الأمر أنه كان فى هذه الهزيمة بداية سقوط [رومانوس] ديوجينس الذى لجأ بعد هذه الأحداث إلى حصن صغير مع حفنة من أتباعه (٤). ويقول بسلوس : لولا تدخل البعض لسقط رومانوس فى ايدينا . ويضيف بسلوس أن رومانوس ديوجينس كان قد رقى رجلا من أصل أرمينى (٥)،

---

(١) تشير هذه العبارة إلى القوات التى كانت تحت سلطان الامبراطور رومانوس قوات لا يستهان بها ، فقد إنضم اليه عدد كبير من الجنود . أنظر ماسبق الموضوع (٣١) .

(٢) المقصود به قسطنطين دوكاس ، وكلمة قائد تا توضح موقف بسلوس . من الامبراطور رومانوس الذى يرى فيه امبراطورا غير شرعياً بعد هزيمة مانزكرت .

(٣) وقعت أحداث هذه المعركة عند دوقية Doceia الواقعة إلى الشمال فى الطريق بين أماسية والقسطنطينية أنظر : Finlay, op. cit., III, p. p. 35 and no 1.

وقد أشارت المصادر العربية أن رومانوس لجأ إلى دوقية بعد اطلاق سراحه راجع : ابن الأثير المصدر السابق جـ ٢٠ ، ص ٦٧ ، ابن العبرى : المصدر السابق ص ٢٢٣ .

(٤) المقصود بها قلعة تايروبيون Tyropoen راجع :
Brehier, op. cit., p. 282.

(٥) يقصد شاقانورس الأرمينى حاكم مدينة انطاكية . وقد ذكره المؤرخ بالاسم فى الموضوع رقم (٣٨) . راجع أيضاً Finlay, op. cit., III, p. 36.

وكان هذا الرجل خبيثاً ومعارضاً لنا ، وعندما رأى ما صار اليه ولى نعمته انتهز الفرصة لرد الجميل . وذهب ليقابله مع حفنة من جنوده ، وشجع رومانوس على الصمود وبذل له وعوداً عجيبة . ولم يترکه يقاتل قوات الامبراطورية بل أخذه معه إلى قيليقية Cilicia . وقال الرجل الارمينى لرومانوس : أن الوديان السحيقة فى اقليم قيليقية سوف تمنحه قسطاً من الراحة بدلا من الهجوم (١) . وبعد ذلك زود الرجل الارمينى رومانوس بالجنود والمال ، وألبسه رداء الامبراطور . وانتظر الرجل اللئيم بعد ما أعد رومانوس للقتال الفرصة المواتية لتجديد القتال ضد معارضيه .

٣٥ — ويقول بسلوس : ولهذا عقدنا مؤتمراً آخر ، وناقشنا ما يمكن عمله بعد ذلك . وكان هناك فريق يجد عقد الصلح مع رومانوس ورأى أنه من الأفضل أن يسمح له بالمشاركة فى الحكم ولا نفعل شيئاً أكثر من ذلك ، بينما صمم آخرون على اعلان الحرب والتأكد من عدم اعطاء أية فرصة لرومانوس للمضى فى خططه غير المسئولة . وعلى أية حال ، لقد قرر المجتمعون عقد الصلح أولا (٢) ، وأرسلوا رسالة ودية ومتعاطفة مع الامبراطور . ولكن [رومانوس] ديوجينس اعتبر الموقف الودى اهانة بالغة ، وقال رومانوس : انه شخصياً غير ملام ، وشرع يقدم مطالب خاصة . لقد رفض التنازل عن العرش ، أو أن يخفف من مطالبه الخاصة بالعرش . والحقيقة أن رد رومانوس كان أكثر صلفاً وغروراً عما اعتقد مراسلوه .

٣٦ — وعلى ذلك اضطر الامبراطور [ميخائيل] وهو آسف أن يتخلى عن فكرة الصلح ، وأسندت قيادة الجيوش الامبراطورية إلى اندرونيقوس Andronicus أكبر أولاد القيصر [يوحنا] . وكان اندرونيقوس رجلا

---

(١) كان تراجعه الامبراطور فى إقليم قيليقية فى مدينة أدنة .
Brehier, L., op. cit., p. 282.

(٢) تشير هذه العبارة إلى أن الحزب العسكرى كان لازال قوياً حتى هذه المرحلة .

طويلا ، كما كان سخياً وعطوفاً وعادلا ، وقد أصبح مسئولا عن قيادة كل قوات الامبراطورة فى الشرق . وكان الهدف الأول لأندرونيقوس هو أن يحارب جيشه بتعاون تام وأن يركز ولاء رجاله على الهدف المشترك كما كانت معاملته لكل الرتب تتسم بالانصاف والمساواة ، وحاول أن يفهم جنوده كبشر ، وأن يثبت أنه صديق لهم . وكان هدفه الثانى عدم شعور رومانوس بمراقبته أثناء اقتراب رومانوس من ممرات قيليقية حتى يشق طريقه بأمان داخل الشعاب الجبلية الوعرة . وبعد أن يعبر رومانوس كل الأراضى الوعرة يفاجئه اندرنيقوس دون توقع (١) . وشرع أندرونيقوس ورجاله فى تنفيذ هذه المهمة ، وطبقاً للخطة الموضوعة سارت القوات فى ممر على درب جبلى منحدر . وفى هذه الاثناء كان الامبراطور ميخائيل قلقاً يخشى أن يقع رومانوس فى أيدى جنوده أو يموت وهو يقاتل ، أو يقع أسيراً وتبتر أحد أعضاء جسمه (٢) .

٣٧ — لقد رأى بسلوس الامبراطور ميخائيل وهو يبكى عدة مرات لتعرض حياته للخطر إذا انتصر رومانوس . وحسب قول ميخائيل لقد كان صديقاً لرومانوس ، وكانت بينهما مواثيق وعهود ويخشى ميخائيل تحرقهما . ولهذا السبب أرسل بعض القسس المحبين للسلام ومعهم رسالة ودية إلى [رومانوس] ديوجينس (٣) . وكانت الرسالة المرسلة من ميخائيل

---

(١) إن تنحية قسطنطين دوكاس وتعيين أخيه أندرونيقوس بدلا منه ترجع إلى فشل قسطنطين فى هزيمة رومانوس ، كما أن وصف المؤرخ لأندرونيقوس بهذه الصورة يشير إلى أن أخيه قسطنطين لم يكن محبوباً داخل صفوف الجيش ، وأنه أقدر منه عسكرياً . ولعل تعيين قسطنطين فى بداية الأمر يرجع إلى تخطيط القيادة فى القسطنطينية .

(٢) أشار المؤرخ إلى أن ميخائيل كان صديقاً لرومانوس . أنظر ماسبق الموضوع رقم(٨) والموضوع رقم (٣٧) .

(٣) هم أساقفة خلقدونية وهرقلية وكلونيا . أنظر :

Finlay, op. cit., III, p. 36.

تتضمن كل انواع الوعود ، وفى الوقت نفسه – رغم عناد رومانوس – ينصحه فيها بالخضوع والاذعان .

٣٨ – وقبل أن تصل هذه الرسالة إلى رومانوس كانت الحرب قد بدأت. لقد كان رومانوس قابعاً فى الحصن الذى سبق له أن سيطر عليه، وكان يتولى قيادة جيشه شاناتورس Chatatoures الارمينى – الذى سبق ذكره فى الفصل السابق – ودخل المعركة وكله أمل فى النصر . لقد سيطر القائد الارمينى بمساعدة المشاه والفرسان على بعض المواقع الهامة – قبل أن تصل قوات الامبراطور ميخائيل اليه – وأعد جنوده للقتال وكان معظمهم من اللاتقين بدنياً وغير مدربين للقتال .

٣٩ – واجه شاناتورس أندرونيقوس بقواته المتأهبة للقتال ، وقبل أن تتخذ الجنود مواقعها للاشتباك فى المعركة ، كان كريسبينوس الفرنجى (١) Crispinus the Framk (ويقول بسلوس انه كتب هذه السطور يوم وفاته) يقف مع أندرونيقوس وكل منهما يشجع الآخر . وكان كريسبينوس هذا عدواً للرومان فى بداية الأمر ، ولكنه غير موقفه فيما بعد، لم يكن ولاءه الجديد أقل وضوحاً من عدائه القديم . وعندما رأى كريسبينوس رجال [رومانوس] ديوجينس مستعدين للقتال طلب من أندرونيقوس أن يثق به ويسمح له بمهاجمة فرسان رومانوس . وقد انطلق كريسبينوس وهاجم قلب قوات رومانوس ونجح فى اختراق صفوفهم . وقد اكتشف كريسبينوس ضعف مقاومة رجال رومانوس لأنهم لم يقاوموا الا لفترة قصيرة ثم ولوا الأدبار، ولذلك طارد كريسبينوس الفارين مع جماعة من فرسانه ، واستطاع أن يلحق بهم خسائر فادحة ، ويأسر منهم عدداً كبيراً .

---

(١) كان أحد القواد البيزنطيين فى ايطاليا ، وفى عام ١٠٦٩م أعلن الثورة لاعتقاده أنه لا يلق المعاملة اللائقة به ، ثم التمس العفو من الإمبراطور رومانوس وأعيد إلى الخدمة العسكرية أنظر : Brehier, L., op. cit., p. 280.

٤٠ — هزم جيش رومانوس وتشتت ، وعاد أندرونيقوس وكريسبينوس منتصران إلى الخيمة التي أعدت لهما . وقدم أحد الفرسان بعد قليل ومعه أحد الأسرى ، وكان الأسير هو شاتاتورس الأرمني الذي قال : انه اثناء فراره سقط في حفرة وزحف إلى ظل شجيرة ، وقد رآه أحد الذين طاردوه وكاد يقتله لولا أنه لمح الدموع في عينيه ، فاكتفى بتجريده من ثيابه ، ومضى لحال سبيله . ثم جاء محارب آخر ، وعندما رآه في هذا الموقف المؤسف اندفع اليه ليقتله . ولكن شاتاتورس أخبره انه إذا أبقي على حياته وحمله إلى قائد معين (ذكره بالاسم) فسوف يكافئه بسخاء . ولما علم أندرونيقوس شخصية الأسير شعر بالانتصار . وعلى أية حال ، فقد زود أندرونيقوس أسيره بالملابس والأدوات التي يحتاج اليها ، وعاملة كقائد شجاع ولم يضع عليه أي قيد رغم أنه كان أسيراً .

٤١ — وكان طبيعياً الا يثق [رومانوس] وديوجينس في فلول جيشه ، ولكنه كان لا يزال يطمع في نجدة حلفائه الفرس (١) . وحقيقة الأمر أنه أخذ يشجع رجاله ويعدهم بالراحة في المستقبل القريب . ولكن القوات التي اعتمد على ولائها والرجال الذين عهد اليهم بحماية الحصن (٢) الذي اختبأ فيه كانوا أول من خانوه . لقد عقدوا اتفاقاً مع أندرونيقوس ،وعندما تلقوا وعداً وقسما بعدم الحاق الأذى بهم ، فتحوا أبواب الحصن وسمحوا لجنود أندرونيقوس بالدخول وأرشدوهم إلى المكان الذي يقيم فيه [رومانوس] ديوجينس . وكان مشهداً غريباً حزيناً ، فقد ولت آمال رومانوس وأصبح مغلول اليدين كالأسير وسلم نفسه لآسريه دون شرط . وفي الحال أجبر على ارتداء زي الرهبان الأسود ثم رفع غطاء رأسه وسمح بقص شعره دون

---

(١) المقصود الأتراك السلاجقة ، وقد ذكر ابن الأثير أن ألب ارسلان هادن رومانوس خمس سنة واصطنعه نائباً عنه . أنظر ابن الأثير : المصدر السابق ج ١٠ ص ٦٦ .

(٢) كان رومانوس في أحد حصون مدينة أدنة في هذه المرحلة . أنظر :

Finlay, op. cit., III, p. 36.

أن يتم بمن قام بذلك . واجريت مراسم التكريس بسرعة ، وقد تم ذلك بمعرفة من تصادف وجودهم وليس على أيدى من ينبغى أن يقوموا بهذا العمل. وبعد ما كرس رومانوس وأصبح راهباً اقتادوه خارج الحصن واصطحبوه مبتهجين إلى أندرونيقوس . ولم يقابله الأخير بالصلف والغرور بل بالملاطفة والمواساة ، فقد صافحه ودعاه إلى خيمته ، وطلب منه أن يكون ضيفه على مائدة فخمة أعدت لذلك .

٤٢ — يقول بسلوس : لقد مضت الأحداث سلسلة حتى الآن ، لقد أخذت القارىء إلى الطريق المنكى السلس كما يقول الكتاب المقدس أما أن أنقله إلى ما حدث بعد ذلك فهذه مهمة صعبة . ويضيف بسلوس انه لا يميل إلى ذكر أحداث يجب ألا تحدث اطلاقاً ، وان كان له أن يستطرد قليلا ، فان بعض ما حدث ما كان يجب أن يحدث ، لأن تعاليم الدين والعزوف الطبيعى عن إلحاق الأذى يحول دون هذا العمل . ومن ناحية أخرى فان ظروف تلك المرحلة وما تطلبه الموقف من حدوث تغيرات مفاجئة لأى من الطرفين المتصارعين كانت من العوامل التى أوجبت حدوثه . ولقد تم ذلك على النحو التالى : لقد خشيت العناصر المخلصة فى المجلس الامبراطورى من نجاح رومانوس فى السيطرة على الامبراطور ميخائيل . ولهذا عمدت هذه العناصر إلى كتاب رسالة إلى شخص معين أوكلوا اليه مهمة تنفيذ سم عينى رومانوس ، وقد تم ذلك دون علم ميخائيل (١) .

٤٣ — كان الامبراطور ميخائيل على جهل تام بما جرى ، ويقول بسلوس : انه لا يذكر ذلك تملقاً لميخائيل ويعلم الله ذلك ، وأن ما ذكره هو الحقيقة . وعندما علم ميخائيل مؤخراً بما حدث بكى بكاء مراً أكثر مما بكى رومانوس قبل محنته . لقد أحزنت ميخائيل هذه الأخبار ولم تفرحه أو أبدى

---

(١) لقد سلم رومانوس نفسه بعد ما ضمن له حياته أساقفة خلقدونية ومرقلية وكلونيا ولكن القيصر يوحنا لم يعبأ بذلك وأمر بسمل عينى الامبراطور ونفاه إلى جزيرة بروت
Finlay, op. cit., III, p. 36.

أى علامة من علامات السرور ، وهو شعوره نفسه عندما سمع بوقوع رومانوس أسيراً ، ولم يمنع ميخائيل من البكاء أمام الناس سوى الاستياء العام . على أية حال ، لقد أرسل رومانوس وهو أعمى ليقيم فى الدير الذى انشأه فى جزيرة بروت Prote حيث توفى بعد قليل (١) ؛ بعد ما استمر حكمه أقل من أربع سنوات . (٢) ولقد أصبح ميخائيل حاكماً بلا منازع للامبراطورية .

بعد هذا العرض لعصر رومانوس الرابع فى حولية ميخائيل بسلوس يمكن القول فى ختام هذا البحث أن بسلوس تناول بعض جوانب عصره بالشرح والتفصيل خاصة ما يتعلق بالأحداث التى وقعت فى القصر ، كما تناول بعض الأحداث بايجاز ولم يوفها حقها مثل بعض الأحداث المتعلقة بالصراع مع السلاجقة . وعلى أية حال ، فقد تناول الباحث المادة التاريخية التى تركها لنا بسلوس بالنقد والتحليل وحدد تواريخها وأماكن حدوثها وغير ذلك من الأمور التى تجعل المادة التاريخية واضحة جلية . والأهم من ذلك ان بسلوس أغفل ذكر حادثتين هامتين وقعتا فى عصر رومانوس .

والحادثة الأولى تتعلق بحملة عسكرية وقعت أحداثها فى عام ١٠٧٠ م ، وهى الحملة التى تولى أمرها القائد العسكرى مانويل كومنين Manuel Comnenus قائد القوات البيزنطية فى الشرق فى عصر رومانوس (٣) وقد عهد رومانوس اليه بمراقبة تحركات السلاجقة فى آسيا الصغرى ووقف غاراتهم ، ولكن مانويل لم يوفق فى مهمته وهزم أمام القوات الاسلامية

---

(١) توفى فى عام ١٠٧٢م .

(٢) من أول يناير ١٠٦٨ – ١٦ أغسطس ١٠٧١م ، ثلاث سنوات وسبعة أشهر ونصف .. C.M.H. IV, p. I, p. 210

(3) Anna Comnena, The Alexiad, tr. Sewter, Pengnin Book, 1969, p. 73.

ووقع أسيراً فى أيديهما . وقد شجع هذا القوات السلجوقية فاستمرت فى غاراتها حتى وصلت إلى مدينة خونية التى هلك الكثير من أهلها فى محاولتهم الفرار أمام غارات السلاجقة . والواضح أن السلاجقة قد تشجعوا بعد هذه الأحداث ، فاستولى السلطان ألب أرسلان على مدينة مانزكرت فى العام نفسه (١٠٧٠ م) واغار على مدينة الرها ، وبعد أن قضى خمسين يوماً أمام أسوارها عاد إلى بلاده . (١)

وإذا كانت الحادثة الأولى تتعلق بالشرق ، فان الثانية تختص بالغرب . ففى السادس عشر من ابريل عام ١٠٧١ م نجح روبرت جويسكارد Robert Guiscard دوق أبوليا Apulia (١٠٥٧ — ١٠٨٥ م) ، فى انتهاز فرصة انشغال القوات البيزنطية بالحروب السلجوقية واستولى على مدينة بارى Bari . وبسقوط مدينة بارى فى يد النورمان تنتهى السيطرة البيزنطية على آخر موقع لها فى ايطاليا (٢) .

---

(1) Brehier, op. cit., p. 280, Finlay, op. cit., III, p. 30.

(٢) عن هذه الأحداث راجع : Anna Comnean, op. cit., p. 53 and no 34 La-Monte, The World of The Middle Ages, New York, 1949,p. 277;Painter, S.A., ,History of The Middle Ages, New York, p. 198; Hasking, The Norman in The European History, New York, 1959, p. 202.

ملحق (١)

حملة رومانوس الرابع على منبج

فى ٢٠ اكتوبر ١٠٦٨ م ١٩ محرم ٤٦١ هـ

لعل أسباب هذه الحملة ترجع بصفة عامة إلى تقدم الأتراك السلاجقة المطرد فى آسيا الصغرى على حساب الأراضى البيزنطية ، وبصفة خاصة عندما هاجم السلاجقة مدينة انطاكية وما حولها ثم عودتهم فى جمادى الأخرة عام ٤٦٠ هـ ابريل – مايو ١٠٦٨ م (١) . وعلى ذلك سار رومانوس واتجه إلى مدينة ليكاندوس Lykandos حيث وصلته الأخبار بأن الجيش السلجوقى اتجه إلى إقليم بنطس Ponts فى الشمال وأغار على مدينة قيصرية . وأسرع رومانوس واعترض طريق عودة السلاجقة عند مدينة سيواس Sebaste (Sivas) وجبال تفريك Tephrike وأجبر السلاجقة على الفرار بعد ما نجح فى تحرير الأسرى واسترداد الغنائم (٢) .

ثم اتجه رومانوس فى العام نفسه ٤٦٠ هـ /١٠٦٧ – ١٠٦٨م إلى الجنوب وأغار على نواحى مدينة حلب واستولى على مدينة منبج Hierapolis وحصنها (٣) ، باعتبارها من القلاع الحصينة المتقدمة على حدود الامبراطورية وهاجم بليدة عزاز (٤) ، وعاد إلى بوابات قليقية ، حيث علم بأن السلاجقة

---

(١) ابن العديم : المصدر السابق جـ٢ ص ١١ – ١٢ .

(2) Finlay, op. cit., III, pp. 27—8.

(3) Michel Le Syrien, Chronique, ed. Chabot, Paris 105, III, p. 168.
الاصفهانى : المصدر السابق ص ٣٥

(٤) ابن العديم : المصدر السابق جـ٢ ص ١١ – ١٢ .

انتهزوا فرصة تواجده فى منبج وأن الحدود الشرقية أصبحت مفتوحة أمامهم فاتجهوا إلى عمورية (١) وعادوا بسرعة دون ان يلحق بهم رومانوس (٢)

والقضية التى أفرد لها الباحث هذا الملحق هى تاريخ سقوط مدينة مدينة منبج فى يد رومانوس ، فقد أورد المؤرخ بسلوس طرفاً من هذه الحملة ولم يحدد تاريخها أو الاماكن التى وقعت فيها الأحداث . كما أشار ميخائيل السريانى إلى سقوط منبج ولم يتحدث حتى عن السنة التى سقطت فيها . أما المصادر العربية فقد اختلفت فى السنة التى وقعت فيها الأحداث . فبعضها ذكر أنها وقعت فى عام ٤٦٢ هـ/ ١٠٦٩ — ١٠٧٠ م (٣) والبعض الآخر يتفق مع ابن العديم بأنها وقعت فى عام ٤٦١ هـ / ١٠٦٨ — ١٠٦٩ م وحدد شهر المحرم من العام نفسه تاريخاً لسقوطها (٤) . وبالرجوع إلى المراجع تبين أن بعضها حدد عام ١٠٦٨ م ولم يحدد الشهر (٥) . وبعضها حدد العشرين من نوفمبر عام ١٠٦٩ م (٦) .

وبتحليل هذه الأحداث ومادتها التاريخية ، نجد أن أسباب الحملة ترجع إلى مهاجمة المسلمين لمدينة انطاكية فى جمادى الآخرة عام ٤٦٠ هـ/ ابريل — مايو ١٠٦٨ م . ولما كانت مدينة انطاكية من المدن الهامة بل والمقدسة لدى البيزنطيين ، وأن رومانوس اعتلى العرش كقائد عسكرى

---

(١) النظيف : تاريخ النظيف . نشرة كاهن ١٩٣٨ فى Journal Asiatique ص ٢٥٨

(٢) Finlay, op. cit. III, p. 28.

(٣) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق — بيروت — ١٩٠٨ ص ٩٨ ، الأصفهانى : المصدر السابق ص ٣٥ ، ابن الأثير ، المصدر السابق جـ ١٠ ص ٦٠

(٤) ابن الجوزى : مرآة الزمان ، على هامش ذيل تاريخ دمشق ص ٩٨ حاشية ٢

(٥) Ostrogorsky, op. cit., p. 304, C.M.H. IV, p. I, p. 209.

(٦) أسد رستم : المرجع السابق جـ ٢ ص ١١٠ ، Brehier, op. cit., p. 280

بمساندة الحزب العسكرى ، فقد أصبح الأمر لا يحتمل الثأر للمدينة حتى نهاية عام ١٠٦٩ م ، ومن ثم فالباحث يميل إلى ما أورده ابن الجورى بأنها أخذت فى المحرم عام ٤٦١ هـ وفى العشرين من نوفمبر عام ١٠٦٨ م . وعلى ذلك يمكن القول أن مدينة منبج سقطت فى التاسع عشر من محرم عام ٤٦١ هـ العشرين من نوفمبر عام ١٠٦٨ م .

ملحق (٢)

حملة رومانوس الثانية على خلاط

فى أواسط عام ٦٤٢ هـ/ ربيع ١٠٦٩ م

كان الأتراك السلاجقة قد اجتاحوا الأراضى المحيطة بمدينة قيصرية فخرج اليهم رومانوس بجيشه لدفعهم عن الأراضى البيزنطية فى ربيع عام ١٠٦٩ م / أواسط عام ٤٦٢ هـ (١) . وحتى ينتهى رومانوس من طردهم بأسرع وقت ممكن ، فقد كان يقتل الأسرى لكى لا يخصص جانباً من جنده لحراستهم ، ويستفيد بكل قواته فى المعارك العسكرية . وبعد ما وصل إلى اقليم قبادوقية اتجه إلى مدينة ملطية عبر مدينة رومانوبوليس Romanopolis وكانت خطته تنحصر فى محاصرة مدينة خلاط أملا فى حماية الحدود الأرمينية من غارات السلاجقة . ولم يرسل رومانوس أحد قواده لتنفيذ هذه المهمة بل اتجه على رأس جيشه إلى مدينة خلاط (٢) وعهد بحماية الحدود إلى القائد الأرمنى فيلاريتوس Philaretos دوق أنطاكية . وكعادة السلاجقة فى حربهم الخاطفة أفسحوا له الطريق والتفوا حوله وهزموا فيلاريتوس واتجهوا إلى مدينة قونية Iconium فهاجموها وعادوا محملين بالغنائم (٣) . وعندما وصلت هذه الأخبار إلى مسامع رومانوس تراجع عن خلاط واتجه إلى سيواس وأرسل إلى فيلاريتوس ليقطع خط الرجعة على السلاجقة فى

---

(١) أنظر ماسبق الموضوع رقم (١٥)

(٢) Finaly, op. cit., III, p. 29.

وقد ذكر ابن القلانسى أن رومانوس عاش فى ناحية مازجرد (مانزكرت)عام ٤٦٢هـ - وفى نواحى مانزكرت تقع مدينة خلاط . أنظر : ابن القلانسى المصدر السابق ص ٩٨ .

(٣) Runciman, A History of The Crusades, Cambridge, 1954, I, p. 16; Brehier, op. cit., p. 280.

الوقت الذى يهاجم رومانوس فيه السلاجقة عند مدينة هرقلية Heracleia كما اشترك الأرمن فى مهاجمة السلاجقة عند جبال قيليقية وأجبروهم على ترك الأسلاب والفرار (٤) . وكافأ رومانوس فيلاريتوس على شجاعته ومنحه لقب دومستيق Domestic (١) ، أى ضابط قصر .

وبعد عرض أحداث هذه الحملة يمكن القول أن أحداث هذه الحملة قد وقعت فى ربيع العام التالى لحملته الأولى فى عام ١٠٦٨ أى ربيع عام ١٠٦٩ م أواسط عام ٤٦٢ هـ ، وهو ما سجله الباحث فى الحاشية رقم (١) صفحة (١٣) .

---

(1) Anna Commnena, The Alexiad, tr. Sewter, Penguin 1969, p. 198.

ملحق (٣)

معركة مانزكرت

١٧ ذى القعدة ٤٦٣ هـ/ ١٦ أغسطس ١٠٧١ م

الهدف من هذا الملحق هو القاء الضوء على معركة مانزكرت لتحديد خمس نقاط معينة ، الأولى هى تاريخ خروج الامبراطور رومانوس بجيشه من القسطنطينية ، والثانية هى التعرف على حجم القوات البيزنطية والسلجوقية ، والثالثة تتعلق بالمعركة وتاريخها . أما الرابعة فهى مرتبطة بأسر الامبراطور ومعاملته ، والخامسة والأخيرة تخص النتائج المترتبة على هذه المعركة .

وفيما يتعلق بتاريخ خروج الامبراطور للقتال ، فقد أشار المؤرخ بسلوس ان خروجه كان فى الربيع دون ذكر السنة ، أما المصادر العربية فقد أوضحت ان خروج البيزنطيين كان فى عام ٤٦٣ هـ/ أكتوبر ١٠٧٠ ـ أغسطس ١٠٧١ م . والربيع الواقع فى هذه الفترة هو ربيع عام ١٠٧١ م ، أواسط عام ٤٦٣ هـ .

أما عن حجم وتسليح القوات البيزنطية ، فقد ذكر بسلوس أن رومانوس خرج لمحاربة السلاجقة مصحوباً بجيوش حليفة ووحدات عسكرية بيزنطية أكبر من حجم القوات التى خرج بها رومانوس من قبل ، ولم يشر إلى حجم القوات السلجوقية . وذكرت بعض المصادر العربية أن القوات البيزنطية كانت على ما قيل ستمائة ألف من الروم «وانضاف اليهم من سائر الطوائف» ، وأن القوات الاسلامية كانت على ما ذكر أربعمائة ألف من الأتراك وجميع الطوائف (١) . وذكرت مصادر أخرى أن الجيش البيزنطى كان يزيد

---

(١) ابن القلانسى : المصدر السابق ص ٩٩ . وهى اعداد مبالغ فيها .

على ثلاثمائة ألف فارس وراجل تضمنت عناصر من البيزنطيين والأرمن والفرس والبجناكية والغز والفرنجة ، وأن القوات الاسلامية كانت خمسة عشر ألف من الفرسان الشجعان (١) . وذكر آخرون أنهم جاءوا فى ستمائة ألف فارس ، وأن المسلمين كانوا اثنى عشر (٢) .

وذكر ابن الأثير أن القوات البيزنطية كانت مائتى ألف من الروم والفرنج والروس والبجناك والكرج وغيرهم من طوائف تلك البلاد ، وأن المسلمين كانوا خمسة عشر ألف فارس (٣) . أما ابن العبرى فقد روى أن القوات البيزنطية كانت مائة ألف وأن القوات الاسلامية خمسة عشر ألف (٤) . وسجل ابن العديم أن عدد القوات البيزنطية كانت ثلاثمائة ألف أو يزيدون ما بين فارس وراجل من جموع مختلفة من الروم والروس والخزر واللان والغز والقفجاق والكرج والابخاز والفرنج والأرمن وفيهم خمسة آلاف من رماة الأقواس ، وأن المسلمين كانوا خمسة عشر ألف (٥) . وذكر ميخائيل السريانى أن عدد القوات السلجوقية كان اثنى عشر ألفاً ، ولم يذكر أعداد القوات البيزنطية . (٦)

من ذلك يتضح أن بعض المصادر قد غالت كثيراً فى ذكر حجم القوات المشتركة فى القتال مثل ابن القلانسى ، لذلك يرى الباحث عدم الاعتماد عليه فى هذه الناحية . ويتبين بعد ذلك أن ما ذكرته المصادر العربية حول القوات البيزنطية يتراوح بين ثلاثمائة ألف وأقلها مائة ألف . ولكن المراجع

---

(١) صدر الدين ابى الحسن : المصدر السابق ص ٤٧ .

(٢) الراوندى : المصدر السابق ص ١٨٩ .

(٣) ابن الأثير : المصدر السابق ص ١٠ ص ٦٥

(٤) ابن العبرى : المصدر السابق ص ٣٢٣ .

(٥) ابن العديم : المصدر السابق جـ٢ ص ٢٤ .

(٦) Michel Le Syrien, op. cit., III, p. 169.

المتخصصة ترى أن حجم القوات البيزنطية كان ستين ألف (١) ، وهو عدد مقبول ومعقول أخذ به الباحث ، وأنها اشتملت على عناصر بيزنطية وغير بيزنطية .

أما عن تسليح القوات البيزنطية فالمعروف ان العمليات العسكرية فى الجيش البيزنطى كانت تقع على عاتق المشاه والفرسان المزودة بالدروع . ويبدو أن رومانوس استعد استعداداً كبيراً لهذه المعركة فقد كان لديه ثلاثة آلاف أو أكثر من العربات لنقل الأحمال ، هذا بالاضافة إلى المعدات التى كان فيها منجنيق كبير يرمى حجراً وزنه بالرطل الخلاطى قنطار ، وكأنه جبل له فى الجو مطار (٢) .

وفيما يتعلق بوقائع هذه المعركة فالواضح أن رومانوس كان يعتمد على عنصر المفاجأة ، لذلك قسم جيشه إلى قسمين أحدهما يتولى قيادته القائد النورمانى رسل دى بايل Roussel de Bailleul ومعه المرتزقة الأوربيين للاستيلاء على خلاط . والجزء الثانى يتولى رومانوس قيادته بنفسه ويتجه إلى ما تركرت (٣) ، لاستعادتها من يد السلاجقة .

كانت تحركات البيزنطيين مفاجأة للسلطان ألب أرسلان الذى كان فى أذربيجان عندما وصلت القوات البيزنطية إلى أرزن الروم ، وكان السلطان فى خواص جنده ،وجموع عساكره بعيدة عنه، فبقى فى خمسة عشر ألف فارس من نخبة عسكره واتجه إلى ميدان المعركة (٤) . وكان ذلك يوم الأربعاء الخامس عشر من ذى القعدة ٤٦٣ هـ/١٤ أغسطس ١٠٧١ م (٥).

---

(١) Oman, op. cit., I, p. 219.

(٢) الاصفهانى : المصدر السابق ص ٥٤١ صدر الدين أبى الحسن : المصدر السابق ص ٥٢ .

(٣) Finaly, op. cit., III, p. 31.

(٤) ابن العديم : المصدر السابق ج ٢ ص ٢٤ .

(٥) صدر الدين أبى الحسن : المصدر السابق ص ٤٩

والواضح أن ألب ارسلان كان قد عرف بكبر حجم القوات البيزنطية ، فأرسل فى طلب الصلح من الامبراطور رومانوس ، ولكن الامبراطور رفض وقال : لاهدنه الا بالرى ، أى بعد هزيمة السلطان ألب أرسلان ودخوله مدينة الرى — ويرى البعض أن السفارة التى أرسلت لطلب الصلح لم تكن غير عيون للسلطان وأن مقصوده كان وأن يكشف سرهم وينعرف أمرهم » (١) .

وإذا كان رومانوس هو الذى دق ناقوس الحرب ضد السلاجقة وحدد أرض المعركة ، فان ألب أرسلان هو الذى حدد موعدها ، وتتفق المصادر أن الطرفين التقيا يوم الجمعة السابع عشر من ذى القعدة عام ٤٦٣ هـ / ١٦ أغسطس ١٠٧١م ، وقت الصلاة حسب ما أشار به الفقهاء على السلطان (٢)

اصطف الجيشان للقتال ووضع رومانوس نفسه على رأس القوات فى الوسط ، وعهد بالجناح الأيمن إلى القائد القبادوقى الياتس Alyattes وإلى الجناح الأيسر إلى نقفور بريننوس Nicephorus Bryennius ، وتولى أمر الجنود الاحتياطية أندرونيقوس بن يوحنادوكاس ألد أعداء الامبراطور . وظلت المعركة من ظهر ذلك اليوم حتى قرب غروب الشمس ، ولم يحقق أى طرف نصراً ملموساً على الآخر . ومع اقتراب المساء أعطى رومانوس أوامره للجيش بالعودة إلى المعسكر البيزنطى (٣) . والواضح أن اندرونيقوس

---

(١) الاصفهانى : المصدر السابق ص ٣٩ .

(٢) صدر الدين أبى الحسن : المصدر السابق ص ٤٩ . ويرى البعض أن المعركة وقعت فى أغسطس ١٠٧١ — راجع Bailly, A., Byzance, Paris, 1948,P 269 Ostrogorsky, oP. cit., P. 304 ويرى آخرون أنها وقعت فى ٢٦ أغسطس ١٠٧١م انظر Brehier, op. cit., P .281, C. M. H., IV, P. 210

(٣) Finlay, op. cit., III, p. 34.

كان قد انسحب فى وقت غير مناسب وأذاع عن عمد شائعة تفيد هزيمة الجيش البيزنطى (١) . وقد بسبب ذلك كله ارتباكاً فى صفوف القوات البيزنطية ، وهى الفرصة التى استغلها السلاجقة لا نزال الضربات بالجيش البيزنطى ، وحاول رومانوس أن يعالج الموقف بما تحت يديه من قوات وقاتل حتى هزم ووقع فى الأسر .

وفيما يتعلق بمعاملة السلطان للامبراطور رومانوس فقد اتفقت المصادر عن حسن معاملة ألب ارسلان لأسيره الامبراطور . ومما ذكرته المصادر أن السلطان قال للامبراطور : ألم أرسل اليك فى الهدنة فأبيت ، فقال رومانوس ، دعنى من التوبيخ وأفعل ما تريد . فقال السلطان : ما عزمت أن تفعل بى ان أسرتنى ؟ فقال الامبراطور : أفعل القبيح . قال السلطان فما تظن أنى أفعل بك ، قال الامبراطور : إما أن تقتلنى وإما أن تشهر بى فى بلاد الاسلام ، والأخرى بعيدة وهى العفو وقبول الأموال ، واصطناعى نائباً عنك . قال السلطان : ما عزمت على غير هذا (٢) وهناك رواية أخرى بيزنطية حول نفس المعنى فقد سأل السلطان الامبراطور عما كان يفعله به إذا كسب المعركة وأمر السلطان ، فأجاب الامبراطور : كنت أجلدك حتى الموت ، ولكن ألب أرسلان قال له : لن أجلدك فقد قيل لى أن السيد المسيح علمكم الصفح عن الخطايا وانه يكره المتكبر ويكرم المتواضع (٣)

وتم الصلح بين الطرفين ، وافتدى رومانوس نفسه بالمال (٤) ، واشترط ألب أرسلان على رومانوس أن يرسل اليه عساكر الروم فى أى وقت يطلبها وأن يطلق سراح أسرى المسلمين ، وهادنه السلطان خمسين سنة (٥) .

---

(١) Scylitzes, Historia, p. 698.

(٢) ابن الأثير : المصدر السابق جـ ١٠ ص ٦٧ .

(٣) Scylitzes, ots. cit.,P.700

(٤) ذكر البعض أنه ألف ألف دينار وخمسمائة ألف . ابن الأثير : المصدر السابق جـ١٠ ص ٦٧ ، وذكر آخرون ألف ألف دينار . ابن العبرى : المصدر السابق ص ٢٢٣ .

(٥) ابن الأثير : المصدر السابق جـ ١٠ ص ٦٧ .

أما عن نتائج هذه المعركة فيمكن القول أن هذه المعركة فتحت الحدود الشرقية البيزنطية على مصراعيها أمام التقدم السلجوقى ، وأن الامبراطورية البيزنطية فقدت اسمها كحامية للحدود الشرقية الأوربية ، وأن السلاجقة نجحوا فى مراحل لاحقة فى السيطرة على جانب كبير من آسيا الصغرى . أما فى الجانب البيزنطى ، فقد تسببت فى أن يفقد رومانوس عرشه ، وزيادة الصراع على السلطة داخل العاصمة البيزنطية لفترة ليست بقصيرة ، كما اتخذ البعض من معركة مانزكرت سبباً من أسباب الحروب الصليبية (١)

---

(1) William of Tyre, A History of Deeds Done Beyond The See, New York, 1943, I, pp. 77—8.

وعن المزيد من النتائج راجع .

جوزيف نسيم يوسف : العرب والروم واللاتين فى الحرب الصليبية الأولى دار المعارف طبعة ثانية – ١٩٦٧ – ص ١٤٥ وما بعدها .